الفصـــل السابـــع

مذكرة لورد بالمرستون

حينما تولى "اللورد بالمرستون ١٧٨٤ – ١٨٦٥ م" وزارة الخارجية البريطانية عام ١٨٣٠م أول مرة؛ كان ضعف الإمبراطورية العثمانية واضحًا، خاصة عندما احتل محمد علي باشا منطقة بلاد الشام، كانت روسيا وفرنسا تتلهفان على موت الدولة العثمانية أملاً في الحصول على نصيبهما من ممتلكات الإمبراطورية العثمانية، لذا ومن باب المنافسة مع روسيا وفرنسا، بدا بالمرستون وكأنه يحاول أن تبقى الدولة العثمانية سليمة وحية، وهو في الحقيقة كان يبحث عن من يحمي مصالح بريطانيا في الشرق العربي، وقد وجد ضالته في اليهود وذلك بتأسيس كيان لهم في المستقبل، بحث الأمر مع اللورد "شافتسبري" الذي أفصح عن مشروع أعده منذ زمن، واطلع بالمرستون عليه، وهو الاستيطان اليهودي في فلسطين وتكثيفه، لم ينجح مشروع شافتسبري لكن صاحبه لم يعرف اليأس وهو صاحب الجملة المأثورة، "فلسطين أرض بلا شعب إلى شعب بلا أرض"، حيث أصبحت تلك الجملة فيما بعد أول الشعارات عند الصهاينة.

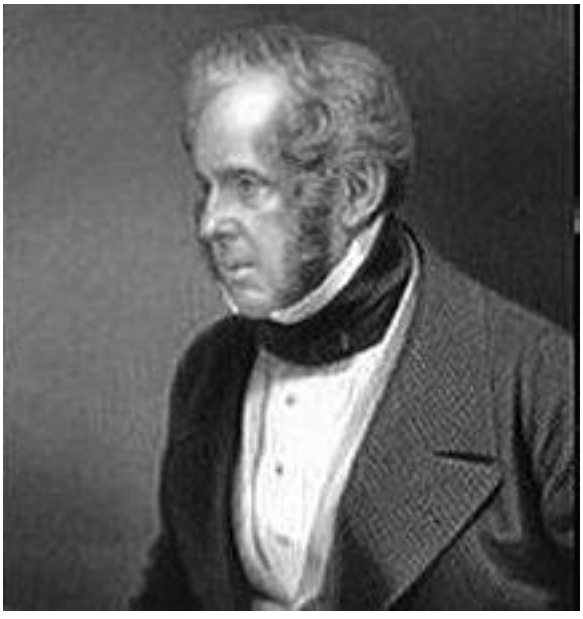

لورد بالمرستون ١٧٨٤ – ١٨٦٥ م

في عام ١٨٠٧ م خلال تصاعد المشاريع البريطانية البروتستانتية، واهتمام

بريطانيا بفلسطين والمسألة اليهودية، تم في بريطانيا تأسيس "الجمعية اللندنية لنشر المسيحية بين اليهود"، لأن ذلك سيُعَجِّل من عودتهم إلى فلسطين، على إثر ذلك أقامت بريطانيا كاتدرائية للانجليكان في القدس عام ١٨٤٤ م، وممن تأثروا بالمشروع كان "أنتوني أشلي كوبر" الذي اشتهر باسم "اللورد شافتسبري"، الذي كانت تربطه علاقة قرابة مع "بالمرستون" وزير خارجية بريطانيا إلى جانب التقاء أفكارهما حول مصالح بريطانيا الاستراتيجية في الشرق والاهتمام الديني بمستقبل اليهود، كان شافتسبري يعتقد اعتقادًا عميقًا بالظهور الثاني للمسيح، وظل هذا الاعتقاد أحد القوى المحركة الدائمة في حياة شافتسبري، الذي كان يقول عن نفسه أنا "إنجيل الإنجيليين" وهو يعني بذلك أنه كرَّس حياته من أجل رسالة دينية.

في فلسطين بالذات وحول ساحل البحر الأبيض المتوسط، كانت تدور في ذلك الوقت أحداث خطرة خلقت فرصة وصنعت منعطفًا تاريخيًا، وراحت توجد ظروفًا جديدة بسبب تقدم قوات "محمد علي باشا" والي مصر شمالاً عام ١٨٣١ م بينما كان أسطوله يحاصر الحامية العثمانية في عكا، فبعد سقوط عكا اندفعت قوات "إبراهيم باشا" ابن محمد علي إلى الشمال، فاحتل سوريا وراح يهدد عاصمة الخلافة العثمانية، وعلى إثر شعور بريطانيا بالقلق من جراء التهديد الروسي لأملاك الخلافة العثمانية بعد أن استعانت تركيا بالروس لوقف جيش محمد علي، وحيث كانت قد بدأت وحدات الجيش الروسي على الفور بالاستعداد للتقدم إلى الجزء التركي من الأراضي العثمانية، عمل بالمرستون على عقد اتفاق مع القوى الأوروبية الرئيسية (فرنسا والنمسا) للتعاون والعمل على وقف الخطر الروسي، وذلك بالضغط على محمد علي لوقف حملته على دولة الخلافة.

كان موقف فرنسا على إثر حملة محمد علي وتوسعه خارج مصر قد بدا أنها تستفيد وأن نفوذها يتسع، حيث أن "محمد علي" كان قد استعان بالضباط الفرنسيين لتدريب قواته، وبذلك يمكن أن يعود نفوذ فرنسا في المنطقة، لكنها الآن أمام الخطر الروسي الكبير الذي قد لا يدع لها شيئًا من النفوذ، بالنسبة

لروسيا فقد وجدت في الاستجابة لطلب الحماية الموجَّه إليها من السلطان العثماني فرصة للتقدم نحو مضيق الدردنيل، وفي نفس الوقت هي قلقة من تزايد النفوذ الفرنسي المحمول على خيول جيش محمد علي الذي يهدد بإسقاط الخلافة العثمانية.

وأما بالنسبة إلى النمسا فلم يكن لها طموحات في مصر أو في سوريا والمنطقة بصفة عامة، لكنها كانت ترى خطرًا في التقدم الروسي إلى البسفور، وأما بريطانيا فقد كانت مصالحها تتضارب مع الجميع، فوجدت أن حماية أملاك السلطان وضمان بقاء دولته هو ضمان لحماية الطريق إلى الهند، في عام ١٨٣٤م عقد بالمرستون اتفاقا تجاريًا مع تركيا تتعهد فيه بريطانيا بحماية أملاك الدولة العثمانية مقابل بعض التسهيلات، وفتح قنصلية بريطانية في القدس بناء على إلحاح اللورد شافتسبري الذي اعتبره المؤرخون صهيونيًا غير يهودي، وحيث أنه كان قد نشر في عام ١٨٣٣ م مقالاً طويلاً وضع فيه تصوره لمسألة عودة اليهود إلى فلسطين، واتجه إلى وزير الخارجية بالمرستون لتحقيق هدفه، في يومياته كتب شافتسبري:

"بعد العشاء تُركتُ وحيدًا معه، فقدمت خطتي، التي بدا وكأنه جُذب إليها، طرح أسئلة عديدة وأجبت عليها، كان علي أن أجادل سياسيًا واقتصاديًا وماليًا حول كل جوانب الخطة، لقد اختار الله بالمرستون ليكون أداته من أجل خير شعبه القديم".

لم يكن بالمرستون متدينًا لكنه كان يستجيب للرأي العام البريطاني الذي كان يتابع أحداث منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط، في العام ١٨٣٨م حاول السلطان استعادة سلطته في سوريا وفلسطين فأرسل جيشًا لانتزاعها من حكم محمد علي، مستغلاً ثورة السكان في سوريا ضد حكم إبراهيم باشا، إلا أن جيشه هُزمَ هزيمة نكراء، واستسلم الأسطول العثماني لجيش محمد علي، وتوفي السلطان سنة ١٨٣٩م حتى قبل ورود أخبار الهزيمة إلى عاصمة الخلافة، في هذه الأثناء أصبح محمد علي أكثر تصميمًا على إسقاط الخلافة العثمانية وإعادتها إلى العرب بقيادة مصر، فدخلت جيوشه سهول الأناضول مدعومة بتأييد فرنسي لا يخفى

على أحد، وهنا دعا قيصر روسيا كُلاً من بريطانيا وبروسيا والنمسا إلى اتخاذ الخطوات الضرورية لأجل إيقاف جيش محمد علي والنفوذ الفرنسي في المنطقة، اجتمعت القوى الأربع في لندن واتفقت على وقف محمد علي ومنحه فقط إدارة فلسطين إضافة لمصر فرفضت فرنسا الاقتراح.

في ١١ أغسطس ١٨٤٠م وبعد لقاء آخر بين شافتسبري وبالمرستون، أرسل الأخير إلى سفيره في اسطنبول مذكرة، وهكذا صار يرى بالمرستون ويتحسس العلاقة بين سياسة حكومته ومشروع لورد شافتسبري، وفي يوم رسالة بالمرستون إلى سفيره في اسطنبول كان الأسطول البريطاني قد بدأ قصف بيروت وتقدمت وحدات بريطانية فاحتلت صيدا ثم عكا، وأوقف محمد علي وحُطِمَ مشروعه، ولم يكن "لويس فيليب" ملك فرنسا مستعدًا لخوض معركة ضد القوى الأوروبية مجتمعة حول مصير الدولة العثمانية، وهكذا كانت معاهدة لندن عام ١٨٤١م التي وقَّعت عليها فرنسا أيضًا وتم فيها إقرار ولاية محمد علي وإدارته الوراثية لمصر، وازداد اهتمام بريطانيا بمصر وفلسطين.

كان بالمرستون يقول إن تركيا بلد متأخر وبحاجة إلى اللحاق بركب الحضارة الغربية، وعلى ذلك تم افتتاح أول قنصلية بريطانية في القدس عام ١٨٣٤م وذلك لحماية المصالح البريطانية في الشرق، والاهتمام بتشجيع اليهود للهجرة إلى فلسطين، كانت التعليمات البريطانية للقنصلية في القدس الاهتمام بشؤون اليهود وتسجيلهم في القنصلية بقصد حمايتهم، وكانت الحماية البريطانية لليهود الذين يحملون جنسيات أجنبية، أما يهود الإمبراطورية العثمانية فكانوا يُعتبرون رعايا للإمبراطورية خاضعين لتشريعات السلطان.

لذا يُلاحظ بأن لبريطانيا دور مبكر، وكانت تُخطط بتكتم مع السلطان العثماني لتجميع اليهود في فلسطين تحت الحماية البريطانية وبموافقة السلطان، إلا أن الهدف الأول من هذا التخطيط كان المصلحة البريطانية تجاريًا وذلك بسبب موقع فلسطين على الطريق بين بريطانيا والهند.

بعث "اللورد بالمرستون" رسالة عام ١٨٤٠م إلى السفير البريطاني في تركيا، طلب فيها حث السلطان على إصدار قرار بتشجيع تجميع اليهود المبعثرين في أوروبا تحت حماية السلطان ومباركته، وقال إنه إذا صدر مثل هذا القرار فإن ذلك سيعمل على انتشار روح الصداقة تجاه السلطان وبين جميع يهود أوروبا.

(نص مذكرة بالمرستون إلى سفيره – انظر الوثائق في نهاية الكتاب)

ولأسباب اقتصادية وسياسية واستعمارية لمنافسة بريطانيا العظمى في ذلك العصر، والعمل على شل حركة التجارة البريطانية بين الهند وأوروبا، عملت أيضًا فرنسا بقيادة "نابليون بونابرت" على احتلال مصر والتوجه نحو بلاد الشام، وراحت تحاول استغلال اليهود الآداة الدائمة لخدمة المتنفذين في العالم حينما تلتقي المصالح، فأصدر نابليون نداءه الشهير إلى يهود العالم سنة ١٧٩٩م. (نص النداء في قسم الوثائق في نهاية الكتاب)

وقد نُشر أيضًا خطاب العالم الطبيعي "جوزيف بريستلي" إلى نسل إبراهيم وإسحق ويعقوب سنة ١٧٩٩م:

"فلسطين، مجد البلاد قاطبة، تؤلف الآن جزءًا من الإمبراطورية التركية، وهي تكاد تكون خالية من السكان، أرضها لا تعرف الحراثة أبدًا، إنها فارغة ومستعدة لاستقبالكم، غير أنه ما لم (تنهار) هذه الدولة التي تحتفظ لنفسها بتلك البلاد دونما أية منفعة يجنيها، فمن المحال أن تُصبح بلادكم، لذا فأنا أصلي جديًا لأغلالها". (المكتبة الحرة **wikisource**).

كان السعي اليهودي حثيثًا، وكان متلهفًا ومستميتًا أن يكون لليهود وطن في أي بقعة من الكرة الأرضية وبأي ثمن، فهنا نلمس من الرسالة التي كتبها تيدور هرتزل إلى الثري اليهودي روتشيلد أحد ممولي الاستيطان الصهيوني، بيَّن هرتزل في رسالته أن الحركة الصهيونية لم تكن تبحث فقط عن فلسطين لتوطين اليهود بها، وهو ما يبطل دعاوي اليهود الكثيرة التي يربطونها باليهودية، وهو

ما يثبت بأن الصهيونية ليست أكثر من حركة استعمارية مغامرة تستند على المنفعة فقط، في ١٥ يونيه عام ١٨٩٥م كتب هرتزل إلى روتشيلد يقول:

لقد تركنا مفاوضينا الدبلوماسيين في أمريكا الجنوبية، يُتممون معاهدات الإحلال مع الدول هناك، لقد انتهت هذه المعاهدات الآن ونحن متأكدون من البلاد التي سنحتلها، ليس هناك شك من أن هذه العملية شرعية ولكنها ليست خالية من الوساوس، نحن نعرف أن الثمن يزداد ازديادًا لا يدري به البائع في البدء، ولهذا السبب وبعد أن تتم معاملات البيع والشراء نُعطي البائع حق الاختيار بين أن يقبض الثمن نقدًا أو يأخذه أسهمًا حسب القيمة الاسمية، أما إذا ظن بأن الأمر كله خديعة فإنه بذلك يسيء إلى نفسه أكثر، وعلى كل حال فلن يكون علينا لوم في شيء، إن أرض اليهود الجديدة يجب أن تستكشف وتستخدم بجميع الوسائل الحديثة، وعندما يقرر علماؤنا الجغرافيون البقعة التي سنأخذها وبعد أن تتم معاملات الشراء وعقوده الدولية والخاصة، ستسير سفينة إلى ذلك المكان لتستلم الأرض، ستحمل هذه السفينة موظفين إداريين وفنيين مختلفين ومندوبين من الجماعات المحلية، سيكون عمل هؤلاء الرواد مقسمًا في ثلاثة أمور:

أولاً: دراسة خصائص البلاد الطبيعية درسًا دقيقًا.

ثانيًا: تأسيس إدارة مركزية محكمة.

ثالثًا: توزيع الأراضي.

وهذه الأعمال الثلاثة تتلاحم معًا، ولا بد أن نوسعها بحكمة لتتناسب وغايتنا التي هي معلومة لدى الجميع، هناك أمر واحد لم نوضحه بعد، وهو طريقة توزيع السكان على المناطق المختلفة بالنسبة للجماعات المحلية، شرط مهم هنا أن نفكر بالطقس ونُعطي لكل فئة ما يشبه الطقس الذي هم متعودون عليه في مكان إقامتهم الأول، بعد هذا التقسيم العام تأتي الاعتبارات الأخرى الخاصة، وسيكون كل شيء مُنظمًا منذ البدء، وحتى على السفينة التي ستسير لاحتلال البلاد سيعرف كل واحد مهمته واضحة، العلماء والفنيون والرؤساء والموظفون وأخيرًا

وأهم، الجميع الممثلون المعتمدون للجماعات المحلية، وعندما تبدو بلادنا الجديدة من بعيد سيرتفع علمنا على سارية.

لورد آرثر بلفور Lord Arthur Balfour:

وأما "لورد آرثر بلفور" فقد ولد في "ويتنهام" باسكتلندا عام ١٨٤٨م، درس العهد القديم وعمل دراساته العليا في "كمبرج" و"إيتون بانجلترا"، زار فلسطين عام ١٩٢٥م وحضر افتتاح الجامعة العبرية بالقدس.

لورد آرثر بلفور ١٨٤٨م

انتخب بلفور في البرلمان وعمل وزيرًا لاسكتلندا عام ١٨٨٧م، وعمل وزيرًا لشئون أيرلندا من عام ١٨٨٧م لغاية ١٨٩١م، ثم عمل وزيرًا للخزانة لبريطانيا وأصبح في عام ١٩٠٢م لغاية ١٩٠٥ رئيسًا للوزراء..

في ٢ نوفمبر عام ١٩١٧م أصدر تصريحًا مكتوبًا باسم الحكومة البريطانية إلى اللورد "روتشيلد" يتعهد فيه بإنشاء وطن قومي لليهود، وارتبط اسمه عند العرب بذلك التصريح الذي سمي بوعد بلفور.

(نص وعد بلفور في قسم الوثائق في نهاية الكتاب).

تلقَّى بلفور تعليمًا دينيًا من أمه في طفولته، واهتم بتعاليم العهد القديم، خصوصًا في تفسيراتها الحرفية البروتستانتية التي تدَّعي بأن فلسطين هي أرض الميعاد للشعب اليهودي، ورؤية بلفور لليهود متأثرة بالرؤية الألفية الاسترجاعية التي تراهم باعتبارهم شعبًا مختارًا ومجرد وسيلة للتعجيل بخلاص البشر، وهي الرؤية التي تمَّت علمنتها فتحوَّل اليهود إلى الشعب العضوي (المختار) المنبوذ.

ويتجلى هذا المزيج من الكره والإعجاب من جانب بلفور في تلك المقدمة التي وضعها بلفور في مقدمة كتاب سولوكوف "تاريخ الصهيونية" حيث يُبدي معارضته لفكرة المُستوطن البوذي أو المُستوطن المسيحي، فالمسيحية والبوذية من وجهة نظره هما مجرد أديان، ولكنه يَقْبل فكرة المُستوطن اليهودي لأن "العِرْق والدين والوطن" أمور مترابطة في حالة اليهود كما أن ولاءهم لدينهم وعِرْقهم أعمق بكثير من ولائهم للدولة التي يعيشون فيها، إن هذا الشعب العضوي يتميَّز أعضاؤه بالنشاط والحركية، ولذا فقد حققوا نجاحًا باهرًا في المجتمع.

لكن بلفور في نفس الوقت يرى أن هذا الشعب العضوي المختار هو أيضًا جماعة أجنبية معادية تؤمن بدين هو محل كره مُتوارَث من المحيطين بها، أدَّى وجودها في الحضارة الغربية إلى بؤس وشقاء استمرا دهرًا من الزمان وتطلب أن يرتاح المجتمع البريطاني من هذا الفائض البشري غير المنتج، الذي يتعاظم عدده كلما مر الوقت، ولأن تلك الحضارة لا تستطيع طرْد أو استيعاب هذه الجماعة، فهُم يتسببون في كوارث تحيق بانجلترا كما فعل يهود اليديشية المهاجرون إليها، وأن بلفور يدرك جيدًا أن ولاء اليهود للدولة التي يعيشون فيها ضعيف إذا ما قُورن بولائهم لدينهم وعرْقهم، وذلك نتيجة طريقتهم في الحياة ونتيجة عزلتهم، وخَلَصَ بلفور إلى أنه ليس من مصلحة أي بلد أن يكون فيه يهود، مهما بلغت وطنيتهم وانغماسهم في الحياة القومية.

وانطلاقا من كل هذا، فقد تبنَّى قانون الغرباء الذي صدر بين عامي ١٩٠٣ و١٩٠٥م والذي كان يهدف إلى وضع حدٍّ لدخول يهود اليديشية إلى انجلترا، وقد أدَّى موقفه هذا إلى الهجوم عليه من قِبَل المؤتمر الصهيوني السابع ١٩٠٥م

حيث وُصفت تصريحاته بأنها "معاداة صريحة للشعب اليهودي بأسره"، كما هاجمته بعض الصحف البريطانية، وقد يبدو الأمر لأول وهلة وكأنه نوع من التناقض الواضح الذي يقترب من الشيزوفرانيا، ولكن أفكار بلفور الاسترجاعية (علمانية كانت أم دينية تُعبِّر عن رغبة في التخلص من اليهود لخدمة الحضارة الغربية، فالشعب العضوي المنبوذ لا يمكن أن يحل مشكلته داخل التشكيل الحضاري الغربي عن طريق الاندماج في المجتمعات الغربية، وإنما يمكنه حلها من داخل التشكيل الاستعماري الغربي عن طريق التحول إلى مادة استيطانية نافعة بيضاء تُوطَّن خارج أوروبا في أية بقعة في آسيا أو أفريقيا، وبالفعل تعمَّق اهتمام بلفور بالمسألة اليهودية حين حضر هرتزل وتفاوض مع وزير المستعمرات "جوزيف تشامبرلين" ووزير الخارجية "لانسدون" لإيجاد وطن لليهود خارج أوروبا، فتم عرض مشروع أوغندا وغيره.

في عام ١٩٠٥م، قام بلفور بمقابلة حاييم وايزمان في مانشستر وأعجب به كثيرًا، ولكنه نسي فكرته الصهيونية إلى حدٍّ كبير في فترة الحرب، ثم قابله مرة أخرى عام ١٩١٥م وناقش معه الأهداف الصهيونية بعد أن كانت الوزارة البريطانية قد ناقشتها عام ١٩١٤م، وعندما عُيِّن وزيرًا للخارجية في وزارة لويد جورج عام ١٩١٦م، عاد بلفور لاهتمامه القديم بالصهيونية بسبب تزايد أهمية فلسطين في المخطط الإمبريالي البريطاني، وقد بيَّن بلفور تصوُّره لمستقبل فلسطين في إحدى المذكرات حيث قال: إن الصهيونية، سواء أكانت على حق أم كانت على باطل، خيِّرة كانت أم شريرة، فإنها ذات جذور متأصلة في "تعاليم قديمة وحاجات حالية وآمال مستقبلية"، التقت رؤية بلفور مع صديقه وايزمان بدفع الهجرة اليهودية بعيدًا عن بريطانيا إبان تدفق المهاجرين اليهود من روسيا ومناطق الإمبراطورية الروسية في أواخر القرن التاسع عشر، حيث حدث قمع شديد لليهود في روسيا القيصرية وتعرضوا إلى بعض المجازر هناك، تعامل بلفور مع الصهيونية باعتبارها قوة اقتصادية تستطيع التأثير في السياسة الدولية وكانت بريطانيا تطمع بإبقاء تحالف أغنياء اليهود معها، وكان بلفور يطمع أن

يساعده النفوذ اليهودي في الولايات المتحدة على إقناع الرئيس الأمريكي "ودرو ويلسون" بدخول الحرب العالمية الأولى مع بريطانيا ضد ألمانيا وتركيا.

كان بلفور شخصية ذكية وسياسي بعيد النظر والرؤية، كان يجمع بين الحزم مع اليهود على طريقته وبين العطف الإنساني عليهم في الظاهر، وبدا هذا حينما أصدر وعد بريطانيا الشهير للصهيونية عام ١٩١٧م حينما شدد على ألا تتضرر مصالح السكان الأصليين بما سينشأه اليهود في فلسطين من وطن لهم، وأما في الحقيقة فقد كان بلفور قلقًا من تزايد عدد اليهود القادمين من روسيا إلى بريطانيا وما يمكن أن يحدثوه من تغييرات في المجتمع البريطاني خصوصًا وأن غالبيتهم من المعدمين الفقراء، وقد ازداد قلقه أكثر بعد أن أقفلت الولايات المتحدة أبوابها للهجرة اليهودية بعد أن استوعبت الكثير منهم، فأصبح ضغط الهجرة على أوروبا الغربية حيث كانت بريطانيا إمبراطورية لا يمكنها أخلاقيًا وإنسانيًا إلا أن ترفع شعارات إنسانية لصالح المهاجرين اليهود.

لهذا وجد بلفور أنه لا يوجد منفذ للتخلص من تدفق المهاجرين اليهود إلى بريطانيا وتشجيع يهود بريطانيا بمغادرتها إلا أن يكون هناك ما يشجع على ذلك، فكان أولاً عرض مناطق في العالم على اليهود لكي يقيموا عليها دولتهم، ولما لم يقبلوا كان وعد بلفور، بهذا يمكن القول بإن آرثر بلفور قد قام بمهنية سياسية عالية في فترة حرجة في السياسة العالمية، ولحساسية القضية فقد كان بلفور يمشي بأناة كما لو أنه يمشي على حد السيف في سياسته الداخلية والخارجية لأجل أن يخدم بريطانيا العظمى، وفي نفس الوقت لكي يبدو متعاطفًا وصديقًا لليهود.

لهذا يمكن القول بإن بلفور لم يكن ليصدر الوعد الشهير بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، إلا لأنه كان وطنيًا بريطانيًا أولاً وقبل أي شيء، وكان هدفه أولاً وأخيرًا هو الحد من الهجرة اليهودية إلى بريطانيا ونقل يهود بريطانيا إلى خارجها وليس أكثر، حتى أنه شدد كثيرًا على صديقه الصهيوني "حاييم وايزمان" لإقناعه بالموافقة على جعل الوطن اليهودي في شرق أفريقيا وليس في فلسطين.

يقول ما معناه "كونور كروز أبريان" المتعاطف مع الصهيونية في كتابه (الملحمة الإسرائيلية والصهيونية) ذاكرًا روح أحد الحوارات التي كانت تتم بين بلفور وصديقه وايزمان، قال أبريان حينما حاجج بلفور الصهيوني حاييم وايزمان، "لماذا لا يوافق اليهود أن يُنشئوا لهم وطنًا في أفريقيا"، رد وايزمان على بلفور، "أنت كبريطاني لو طُلب منك أن تستبدل انتماءك إلى باريس وليس إلى لندن لكي تعيش فيها فهل توافق؟" كان رد بلفور عليه "ولكن لندن موجودة وأنت لا توجد لك مدينة"، حينها أجاب وايزمان "القدس كانت موجودة حينما كانت لندن ما زالت مستنقعات بلا بشر".

ألَّف بلفور عدة كتب في الفلسفة والدين منها: دفاع عن الشك الفلسفي ١٨٧٩م، وملاحظات أولية لدراسة اللاهوت ١٨٩٣م، ودراسة في العقائد المألوفة ١٩٢٣م، هذا ولقد قيل الكثير عن مبررات وعد بلفور، الذي صنع نكبة للفلسطينيين، الذين كانوا آمنين في وطنهم فصاروا بعده لاجئين، وهنا يغرينا أن نقتبس بعض ما قيل عن وعد بلفور من مقال بحثي قيِّم للدكتور "إبراهيم حمامي"، تحت عنوان "قرنين على وعد بلفور"، من البحث نقتطع بعض الفقرات ونشير إلى غيرها.

قال البعض إن بريطانيا لم تكن تتآمر على العرب في فلسطين، وأن كل ما حدث ببساطة، هو أن بريطانيا أرادت أن تكافيء اليهودي "حاييم وايزمان" على اختراعه مادة "الأستون" خلال الحرب العالمية الأولى، المادة التي تلزم للصناعات العسكرية، وأن الأسطورة تقول "إن لويد جورج رئيس الوزراء البريطاني آنذاك سأل وايزمان بماذا يستطيع أن يكافئه، فأجابه وايزمان اصنع شيئًا لشعبي، فتأثر أساطين الإمبراطورية وأصدروا الوعد"، وهنا أيضًا يؤكد حاييم وايزمان مدى إعجاب "لويد جورج" بالعهد القديم (التوراة)، عندما تحدث عن أحد لقاءاته معه، حيث قال: "وصلت إلى مقر رئيس الوزراء في داوننج ستريت بلندن، وكانت الشوارع مكتظة بالأهالي المهللين، ولما وصلت على لويد جورج وجدته يقرأ في

مزامير داود، وعرضت عليه خلاصة مستعجلة لأعمالنا وزياراتنا لبلاد فلسطين". (التجربة والخطأ)، مذكرات حاييم وايزمان.

حتى البحاثة "ميخائيل بار زوهر" يقبل هذا التعليل في كتابه "النبي المسلح" حياة بن غوريون، كما أن لورد آرثر بلفور برر الوعد، لأن اليهود عانوا في أوروبا ودفعوا ثمنًا باهظًا بسبب العداء للسامية، وبسبب ما ارتكب في حقهم من جرائم وعنصرية وظلم، وأن "لويد جورج" أحد رؤساء وزراء بريطانيا السابقين، قال أيضًا في كتابه "الحقيقة حول معاهدات الصلح" عن بعض العوامل والأسباب التي جعلت بريطانيا تُصدر وعد بلفور عام ١٩١٧م، "الحكومة الألمانية في سنة ١٩١٦م كانت تُطالب الأتراك العثمانيين بالسماح بهجرة اليهود إلى فلسطين، وأن ألمانيا تود أن تستولي على النفوذ في المنظمة الصهيونية العالمية، وأن ألمانيا تحدثت مع وزير الباب العالي السلطاني "طلعت" في اسطنبول".

لكن مهما قيل فإن السبب الرئيسي في وعد بلفور هو توظيف المادة البشرية المتمثلة باليهود الصهاينة ومن تبعهم لخدمة النفوذ الغربي، التي خصت به بريطانيا نفسها دون غيرها في فلسطين حتى ذلك الوقت، وهو الهدف البعيد الذي أشارت إليه الصحافة البريطانية في تلك الفترة قبل وبعد صدور وعد بلفور، فقد كتبت صحيفة "ساندي كرونيكل" في تلك الفترة، "إنه لا يوجد جنس بشري في العالم كله يمكن أن يقوم لنا بهذه الخدمة غير اليهود بأنفسهم، فلدينا الآلة الصهيونية المحركة التي ستجعل الإمبراطورية البريطانية آمنة في تلك المنطقة من العالم"، كما أن صحفًا أخرى كانت لا تنفك تُحذر الحكومة البريطانية خوفًا أن تقع فلسطين تحت سيطرة قوة عالمية أخرى تضر بالمصالح البريطانية في المنطقة، نشرت إحدى الصحف في ذلك الوقت أيضًا، "أنه من الضروري قيام حاجز حضاري بين مصر وتركيا، فمصر طامعة في وراثة الخلافة العثمانية، وقد شاهدنا حرب محمد علي باشا والي مصر ضد الخلافة العثمانية وكيف أنه كاد أن يُسقط الخلافة العثمانية لولا تدخل الحلفاء وإعادته إلى داخل حدود مصر فقط". وكتبت صحيفة "جلاسكو هيرالد" البريطانية ما معناه، أن الدفاع عن قناة السويس

أمر ضروري، وأن صدور الوعد سيكون له أثر مدوي في العالم خصوصًا عند القوى المتنفذة في العالم مثل روسيا وبولونيا والمجر، لهذا فإن توطين شعب آخر مرتبط عضويًا ببريطانيا سيؤمن قناة السويس هذا الشريان الحيوي الموصل إلى المستعمرات البريطانية في الشرق وخصوصًا إلى الهند، قال أحد الكُتَّاب اللامعين اسمه "تورمان بنتويتش" في كتابه "إسرائيل الناهضة" عام ١٩٦٠م، "لقد ربط حاييم وايزمان الصهيونية بنجم انجلترا، وهو يعتقد أن بناء فلسطين يتوجب أن يكون شراكة بريطانية يهودية".

عام ١٩١٩م ألقى "ماكس نوردو" أستاذ هرتزل ونائبه خطابًا في احتفال جرى في ألبرت هول بلندن، حضره كبار الإمبرياليين "لويد جورج" و"اللورد بلفور"، وكان ماكس نوردو قد تخلص من ولائه لألمانيا بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى، وربط في خطابه دولاب الصهيونية بالقطار البريطاني قال "تعرف (أيها السادة) ما تتوقعونه منا، تريدون أن نكون حرس قناة السويس، علينا أن نكون حراس طريقكم إلى الهند عبر الشرق الأدنى، نحن على استعداد لأن نقوم بهذه الخدمة العسكرية ولكن من الضروري تمكيننا من أن نصبح قوة حتى نقدر على القيام بهذه المهمة"، ولم يستمع البريطانيون حينذاك إلى اعتراضات العرب ولا إلى اضرابات الفلسطينيين فقد حالت أصوات مدافع الحرب والبحث عن المنافع دون سماع أصوات العرب الذين كان معظمهم ما زالوا في أرض الأعداء (العثمانية).

"في حزيران/ يونيو ١٩١٧م ألقى "مرمادوك بيكثول"، الذي اشتهر فيما بعد بترجمته للقرآن، محاضرة في قاعة "كاكستون" نشرتها فيما بعد الجمعية الإسلامية المركزية في لندن في كراس بعنوان "المصالح الإسلامية في فلسطين"، كان الغرض من تلك المحاضرة كما قال صاحبها، هو إزالة الجهل الخطير المتفشي عندئذ في بريطانيا، ليس بين عامة الناس فحسب بل حتى بين الوزراء، وذلك بشأن ما ينطوي عليه تطبيق الخطة المقترحة من مضامين ومخاطر "بإنشاء دولة يهودية في فلسطين في ظل سيادة إحدى الدول المسيحية"،

واشتملت تلك المحاضرة على عرضٍ وافٍ لمكانة فلسطين والقدس في الإسلام وفي التاريخ العربي"، قُدِّم نَصْ المحاضرة المطبوعة إلى وزارة الخارجية البريطانية كاحتجاج إسلامي على وعد بلفور، فكانت ملاحظات "مارك سايكس" مهندس اتفاقية "سايكس بيكو ١٩١٦م"، أن صاحب المحاضرة شخص موالي "لتركيا"، ونسي مارك سايكس أن فلسطين مُقدسة لدى أتباع الديانات الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام، ومن الخطأ الاهتمام بمصالح الديانتين الأوليتين فقط وتجاهل الثالثة.

وحينما عادت الجالية الإسلامية للاحتجاج إلى وزير الداخلية البريطاني، وكان قد مضى على صدور وعد بلفور خمسة أيام، لم يكتف وزير الخارجية مارك سايكس بنعت من قدَّموا العريضة الأولى بالموالاة لتركيا بل وصفهم بالعملاء لتركيا (العدو)، وحض على عدم الاهتمام باحتجاجاتهم، ونفس الشيء حينما تم تجاهل أيضًا الاحتجاج الذي وجَّهه "أمير علي" من مجلس شورى الملك البريطاني في ١٠ نوفمبر ١٩١٧م إلى اللورد هاردينج الوكيل الدائم لوزارة الخارجية ومندوب الملك السابق في الهند، فقد رغب السيد أمير علي أن يسترعي انتباه بلفور إلى واقع، "أن فلسطين هي في نظر المسلمين أرض مقدسة دون أدنى شك"، وأن مدينة القدس لا يفوقها قدسية وطهارة عندهم سوى مكة والمدينة، وبيَّن أن من "الغبن والإجحاف" بالإسلام وضع أحد "أقدس أقداسه" تحت السيطرة اليهودية.

وفور صدور وعد بلفور سارعت دول الغرب، وعلى رأسها "فرنسا" و"إيطاليا" و"أمريكا" بتأييده، بينما كان في مناطق العالم العربي وقع الصاعقة، واختلفت ردود أفعال العرب عليه بين الدهشة والاستنكار والغضب، كانت فرنسا صاحبة أول بيان صدر تأييدًا لتلك المبادرة، فقد أصدر وزير الخارجية الفرنسي بيانًا عبَّر فيه عن الارتياح عن التضامن بين الحكومتين الإنجليزية والفرنسية في قضية إسكان اليهود في فلسطين، وإزاء حالة السخط والغضب التي قابل العرب بها "وعد بلفور" أرسلت "بريطانيا" رسالة إلى "الشريف حسين" إمعانًا في الخداع

والتضليل، حملها إليه الكولونيل "باست" تؤكد فيها الحكومة البريطانية أنها لن تسمح بالاستيطان في "فلسطين" إلا بقدر ما يتفق مع مصلحة السكان العرب.

في عام ١٩١٨م صادق الرئيس الأمريكي (ولسون) رسميًا على وعد (بلفور) وقال "أغتنم الفرصة لأعبر عن الارتياح الذي أحسست به نتيجة تقدم الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة والدول الحليفة، منذ إعلان السيد بلفور باسم حكومته عن موافقتها على إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، ووعْده بأن تبذل الحكومة البريطانية قصارى جهدها لتسهيل تحقيق ذلك الهدف"، وبعد ذلك أقر الكونجرس وعد بلفور وفقًا للشروط التي يتضمنها وعد الحكومة البريطانية، ولم يكن هذا فقط بل إن الكونجرس الأمريكي (مجلس النواب) أصدر بيانًا قال فيه، "حيث أن الشعب اليهودي كان يتطلع لقرون طويلة ويتشوق لإعادة بناء وطنه القديم، وبسبب ما تمخضت عنه الحرب العالمية، ودور اليهود فيها، فيجب أن يُمكَّن الشعب اليهودي من إعادة إنشاء، وتنظيم وطن قومي في أرض آبائه"!

في مجلس الشيوخ الأمريكي بعد صدور وعد بلفور، ألقى رئيس لجنة العلاقات الخارجية، خطابًا قال فيه، "إنني لم أحتمل أبدًا فكرة وقوع القدس وفلسطين تحت سيطرة المحمديين، إن بقاء القدس وفلسطين المقدسة بالنسبة لليهود، والأرض المقدسة بالنسبة لكل الأمم المسيحية الكبرى في الغرب، في أيدي الأتراك، كان يبدو لي لسنوات طويلة وكأنه لطخة في جبين الحضارة، من الواجب إزالتها".

في ١١ ديسمبر١٩١٧م أي بعد أسابيع فقط من الوعد، دخلت الجيوش البريطانية بقيادة الجنرال اللنبي القدس، وقال عبارته الشهيرة "الآن انتهت الحروب الصليبية"، في مؤتمر فرساي يناير ١٩١٩م قدَّمت الحركة الصهيونية خطة تنفيذ مشروع استيطان فلسطين، ودعت إلى إقامة وصاية بريطانية لتنفيذ وعد بلفور، وأن تشمل حدود فلسطين ضواحي صيدا ومنابع الليطاني ونهر الأردن وحوران وشرق الأردن والعقبة وأجزاء من صحراء سيناء المصرية.

في ٢٧ يناير ١٩١٩م عُقِد المؤتمر العربي الفلسطيني الأول، وقرر رفض تقسيم الشام إلى دويلات، مع اعتبار فلسطين جزء من بلاد الشام وليست دولة مستقلة، كما شكَّل حكومة وطنية فلسطينية، وفي ١٩١٩/٠٢/٠٢م في باريس خلال انعقاد "مؤتمر الصلح" تخلى الشريف حسين عن فلسطين مقابل إعطائه دولة على الأرض العربية، ووافق على اعتبار فلسطين تحت وضع دولي وليس بالضرورة أن تكون تابعة للدولة العربية الجديدة! وهكذا تم أول تنازل عربي رسمي عن أرض فلسطين! بعد ذلك وجه "فيصل بن الحسين" رسالة إلى الزعيم الصهيوني الأمريكي "فرانك فورتر" يقول فيها: "نحن العرب وخاصة المثقفين منا ننظر برغبة شديدة إلى النهضة الصهيونية، وسوف نعمل كل ما بوسعنا لمساعدة اليهود، ونتمنى لهم وطنًا ينزلون فيه على الرحب والسعة!".

في ٣١ مايو ١٩٢٠م صدر إعلان الانتداب على فلسطين في مؤتمر "سان ريمو" وعُيِّن البريطاني الصهيوني "هربرت صموئيل" مندوبًا ساميًا في القدس، وكان وزيرًا للداخلية البريطانية ومتعاطفًا مع الصهاينة، وبعد ثلاثة أيام فقط من إعلان صك انتداب بريطانيا على فلسطين، كشفت بريطانيا عن مضمون وعد بلفور، واحتج الفلسطينيون وحدثت اشتباكات لأول مرة بين الحرس البريطاني والعرب. وبعد أن أصبح "ونستون تشرشل" وزيرًا للمستعمرات عقد مؤتمرًا في القاهرة للعسكريين والموظفين البريطانيين، وذلك لمراجعة الوضع البريطاني في المنطقة، وأوصى المؤتمر بالاستمرار في تنفيذ وعد بلفور، وأن تُشكَّل في شرق الأردن إمارة عربية بقيادة الأمير عبد الله يكون مسؤولاً عنها أمام المندوب البريطاني دون أن تكون المقاطعة مشمولة في النظام الإداري لفلسطين، ودون أن تنطبق عليها شروط الانتداب، وليكون شرق الأردن مستعدًا لاستقبال من يضطر من الفلسطينيين للمغادرة!